Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بيْد أن لغزاً بقي دون حل في شخصية (عنيدان)، وهو في قرية (المريجة)، فقد اكتنف الغموض عادته المجسّدة بالنظر المستديم من سطح كوخه في (المريجة) إلى الثلج الأبيض في قرية (أم النسور). وقد كنت أتساءل: لماذا أغرم (عنيدان) بهذا النظر الدائم إلى الثلج الذي يغطي سطوح تلك القرية؟ وأبحث عنه في صلة له بالشوق الدفين إلى اللون الأبيض الذي سلبته الطبيعةُ والوراثة (عنيدان)... ولكن الأمر لم يكن على هذا النحو، فقد تكشف السر في النهاية، ولم يعلن عنه الروائي، بل اجتهدت فيه اجتهاداً هنا، فربما كان هناك خيط خفي أقرب إلى أسرار الروح، ويتمثّل بانتحاء الحفيد إلى موطن الجد الجديد، حيث كان المرابع (هزّاع) يقيم. فهل كانت مداومة التطلع إلى الثلج وتأمل بياضه تخفي ميلاً فطرياً إلى انتماء (عنيدان) إلى براءة أمه من خلال انتحائه سَمْتَ أبيها في (أم النسور)، أكثر من انتمائه إلى أبيه (سحيمان) المنهوم بالغريزة والذي دفن في (المريجة)؟ أم أن (عنيدان) الأسود كان يتطلع إلى كل ماهو نقي صاف كالثلج في الحياة، استنكاراً منه غير معلن لسواد أخلاق الناس في المجتمع الذي ظلم أمه ظلماً عنيفاً؟؟ إنها تساؤلات لم نجد لها أجوبة في الرواية، وإنْ كنا نجد لها إثارة أسهمت في شدّ القارئ وإيقاظ اهتمامه بما وراء السطور.

أما شخصيتا الشيخ (هدّاد) و (أبو مروان)، وأولاهما ريفية، والثانية مدينية، فهما متشابهتان من حيث الجشع ونكران الحقوق، واستغلال جهد الفقراء والمعوزين من الناس، وعليه يمكن الاستخلاص أن إقطاعيي الريف كتجّار المدينة، لايهمّ أيّاً منهم سوى مصالحه ومنافعه وسمعته الاجتماعية، وماعدا ذلك فليذهبْ إلى الجحيم..! وقد نجح الكاتب (سراي الدين) في تصوير التحالف بين الفريقين، حين رسم المؤامرة مابين (هدّاد) و(أبو مروان) على المعلم (سلمان) أولاً، إذ نقل إلى (أم النسور) عنوة، وعلى (هدية) وابنها، إذ اتفقا على نقلهما إلى المدينة، ليعملا خادمين في منزل (أبو مروان) مقابل لقمة العيش، فقط. فالرجلان لايعنيهما البتّة تعليم (عنيدان) مثلاً، ولا تطوير شأن هذه الأسرة المنكودة، لتتحرر وتحيا حياة إنسانية كريمة.. ومن هنا فإن الجانب الخير في النفس البشرية لم يكن باديا بوضوح في شخصيات الرواية، إلاّ، اللهم، عند زوجة الشيخ هدّاد التي كانت تعامل (هدية) بشيء من العطف، على عكس كنتّها (أزهار) التي كانت زوجة قطيفان بن هدّاد، وكانت تغار من (هدية) الجميلة جدا.

وخلاصة القول هنا أن أيّاً من شخصيات الرواية قد أخفق في أن يكون رمزاً لمعنى، أو لقيمة، أو لفكرة، كما هي الحال في روايات أخرى، كرواية